لَيـُغَانُ عَلَـى قَلْبِـي

قصة قصيرة

محمد الأديمي

ليُغان على قلبي

قصة قصيرة

محمد الأديمي

قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم:
(إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قلبي و إني لأَسْتَغْفِرُاللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ).

ليُغان من الغَين، وهو ما يتغشى القلب من الفترات والغفلات عن الذكر.

بسم الله نبدأ

ذُهُول

كان الشتاء في أوج صقيعه، والأرض في أبهى تبرجها، فقد تجملت وتزينت وتهيأت للاحتفال بانصراف عام وقدوم عام، إنه اليوم الأول من سنة جديدة، يومٌ ملتبس بين عامين، ومازال الناس على قيد الحلم بالقادم الجميل، هكذا كانت الأمنيات، زاهية وباهية.

الناس عند حلول عام جديد، يتخذون قرارات يعجزون في الغالب عن تنفيذها، رغم العهود التي يقطعونها لأنفسهم والحماس الكبيرعلى إنجازها. وكأنهم قبيل كل سنة جديدة في حاجة إلى من يثبت لهم أن المستحيل ممكن، رغم أنهم يدركون تمام الإدراك أن هذا الزمان ما عاد فيه حتى الممكن ممكناً.

وعلى الرغم مما يحدث لهم كل عام إلا أن الأمل كان وَاسِعاً بحلول العام الجديد، وذلك يتضح لنا من خلال التهاني التي يتبادلونها فيما بينهم، وتلك الإضاءات التي زينت البنايات الشاهقة، والألوان المبهجة التي انبثقت من الألعاب النارية في سماء المدينة التي غدت بعد ساعات فقط خاليةً على عروشها.

جميع الناس تنتظر الأيام الأولى من السنة الجديدة بلهفة وشمق وفرح غامر، وهذه إحدى عجائب الإنسان، فكيف له أن يحتفي بانقضاء سنة من رصيد عمره، وتصبح الأعوام مجرد أرقام منسابة من سجل الوجود.

ومن هنا تحديداً بدأت مأساة الإنسان عندما وقع في قبضة الأرقام، أرقام الأعوام، وأرقام الأعمار، وأرقام الأرصدة، وأرقام المتابعين، وأرقام الهواتف. سلسلة أرقام فارغة تقود مصيره في الحياة، فيصبح رهن الصعود والهبوط لتلك الأرقام.

استيقظ أواب مع إفاقة الشمس على الوجود، فتح النافذة، وعلى غير العادة، شوارع فارغة من البشر والضجيج، تخفف الجو من لوثة السعي، بدت السماء أكثر صفاءً، والهواء أكثر لذةً ونقاءً، أين الناس؟ ما هذا الهجوع الغير معهود، على الرغم من أن البارحة كان الصخب فيها يتغلغل بين شقوق الأزقة والشوارع.

بطرف أحد أصابعه بدأ يحرك شاشة هاتفه، ينتقل من إشعار إلى آخر، رسالة من صديق يسأل عن الحال، بث مباشر لمشهورٍ تافه يهذي أمام ألوف من أهل الدعة، وبث ثاني وثالث من مشهور آخر ومطمور أيضاً، والعجيب أنهم يتحدثون عن موضوع واحد، عن مجهول غزا العالم وعمل حجراً على الكرة الأرضية ومن فيها.

بينما هو يقلب الأخبار المتواترة عن هذا الكائن الَخْفِيّ شعر بالذعر والارْتِيَاب، ما هذا الكائن الفتّاك الذي ينتقل من إنسان لآخر على عجلة، ويردي ضحاياه واحداً تلو الآخر دون رويةً وتُؤَدَة.

ثم ذات لحظة، حدث أمر قلما يحدث في الإجازات، دق هاتفه عند الثامنة صباحاً، بشغف المستيقظ على ارتياع، كان الهاتف يدق على إيقاع المباغتة، و انتظار تلقي خبر مفجع، كان يخشى الاستسلام لنداء الهاتف الذي يحمل أخبار غير منتظرة في هذا الصباح الغريب. أبت مخاوفه عليه أن يرد على الهاتف، بعد أن توقف الرنين، وجد الرقم مقيد باسم مجهول.

زمن الأخبار الجميلة انقضى، يوم كان الهاتف يرن على الأخبار السارة، ترقية، زيارة صديق، حلول مولود جديد، دعوة للعمرة. كان ذاك في زمن الأبرار، أما اليوم فكل الهو اتف تنذر بشؤم.

قبل سنين، جاءه اتصال من صديقه منيب، مصحوباً بدعوات إلى فيض الرحمات، قال له بروحه الطيبة وصوته الرضيّ (يا أخي، أنا في طريقي إلى مكة، أريدك أن تر افقني إلى هناك)، كان ذلك اليوم محبباً إلى قلبه، حيث اختارا أن تكون الرحلة «رحلة استغفار».

رحل هذا الصديق ورحلت معه تلك الهو اتف المبشرة.

وقفة مع الذات

مازال بريق الإيمان في قلبه ولكنه غرق في سبات طويل لسنوات، عَبَرَ خلالها طريق موحش بعيد عن تلك الدروب التي توصل إلى مراسي السلامة، أصبح تائهاً بلا وجهة، غريباً بلا مَأْوًى، أثِيمٌ تنازع روحه الهفوات. لكن ما زال لديه رصيد سابق من الخير لم يستنفد.

(أواب؟ طمني عنك وعن أحوالك في زمن الكورونا؟)

رسالة وصلته من صديقه الذي جمعت بينهم الغفلة، لكنه تجاهلها كما تجاهل ذلك الاتصال السابق، فهو الآن ما زال في دهشة مما جرى للأرض وسكانها. وبينما هو يقلب صفحات الإنترنت وقعت عيناه على جملة جذبت انتباهه إليها:

الأزمات هي طريقة الله ليقول لك:

عفواً، أنت تمضي في الطريق الخطأ.

دار حواراً بينه وبين نفسه:

«فعلاً، فإني أمضي في الطريق الخطأ، نعم هذه الرسالة لي، هذه الأزمة رسالة للبشرية جمعاء، لنعرف حقيقة الحياة، فالكوارث تحمل في طياتها رسائلٌ مفادها أن لا تتعلقوا كثيراً بالحياة الدنيا، ولنعرف حقيقة الطريق الذي نسلكه. لكن لماذا الآن بالتحديد، لماذا بعد التهاني والمعايدات، ومشاركة الآمال بعام جديد أجمل، لماذا والناس مازالت جاثية أمام الأحلام.

قضينا ثلاثة أشهر في الشركة نكتب خطة العام الجديد، أهداف صعبة وطموحات كبيرة، أيضاً كنت قد كتبت قائمة بالأعمال التي أريد أن أنفذها في أرباع السنة، فكان لكل ربعٍ حُلم.

كم دورة سأحضر، كم دولة سأزور، كم معلم تاريخي سأكتشفه، كم وكم وكم، واليوم أنا على السرير أخاف من كائن لا أراه.

وراودني السؤال مجدداً، لماذا الآن والأرض في مَحْفِل.

(حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

كثير من آيات القرآن نمر عليها دون أن نعي دلالاتها وندرك ما ترمو إليه، ها هي الآية من سورة يونس تتكشف لنا بأبهى معانيها، ها هي الأرض بشوارعها و أبنيتها الشاهقة والمزينة والأنوار والأشجار والهدايا والبهرج الفتان، يأتي مخلوق لا يُرى بأمر من الله فيجعل الأرض وأهلها وكأنها ما كانت وكأنهم ما كانوا.

والملحد الذي كان يردد كيف أؤمن بمن لا أرى، يختبئ اليوم في منزله خوفاً من مخلوق لا يراه.

رفع ناظريه للسماء وتذكر أنه قبل أشهر كان يقرأ كتاب عن المستقبليات،

يتحدث عن التحول الجذري الذي سوف يحدث للبشرية خلال السنين القادمة بسبب الذكاء الاصطناعي والهندسة الحيوية.

وهو يقرأ الكتاب كبر في قلبه ما يفعله الإنسان، وبدأ لا شعورياً الإحساس بأن الغرب أصبح أكثر سيطرة على العالم والحياة خاصة حيث هناك تجارب جينية لإطالة عمر الإنسان.

اليوم وهو يشاهد كيف لفيروس لا يرى بالعين المجردة أن يجعل البشرية كلها تدخل في حالة من التخبط والذعر والصراع الوجودي والإغلاق الكوني، أجهض في قلبه ذلك الانْبِهار الذي حمله لما يعمله إنسان العصر الحديث، فمهما أنجز وحَقَّقَ سيظل ضعيفاً وتهزمه هباءة منثورة في الهواء.

وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا

وتذكر من ماضيه ذلك اليوم الذي قعد في مجلس من يخوض في آيات الله، وتحديداً ذلك المعتوه الذي سخر من معركة الأحزاب وقول الله تعالى:

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا.

هل صدقت اليوم أن هناك جنوداً لا يمكن أن تراها؟

كتاب من ألف صفحة

أول كتاب وقع في يديه كان لأبن قيم الجوزية، وذلك قبل أكثر من عشر سنوات، كان الكتاب يتحدث عن تفسير آيات في سورة الفاتحة، أمسك بالكتاب في ليلة رمضانية بهيجة ولم يفلته إلا عند الساعة التاسعة صباحاً، قراءة متواصلة، أَحَسَّ بشهية غير مسبوقة لالتهام الأفكار والمعاني، لم يكن يعرف قبل أن يمسك هذا الكتاب، أن هناك أوراق تضم مجموعة من الحكم السائغة.

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين؛ كانت له ذكريات جميلة مع هذا الكتاب، واحدة من التحولات الكبرى في حياته كانت بدايتها مع أفكار هذا الكاتب الجليل، أسلوب وعمق الأفكار التي وضعها ابن القيم في كتابه عن فوائد الاستغفار جعلته يتمنى أن يذنب ليستغفر الله فيغفر الله له. للأسف تحققت أمنياته بالذنوب.

كان يظن أن الاستغفار كلمة يرددها بعد كل ذنب، وتراكمت الذنوب في قلبه حتى فقد القدرة على النطق بها، لقد ظلم نفسه وعمل سوءاً ولم يستغفر ورغم ذلك وجد الله غفوراً رحيما.

في حجره المنزلي بدأت تعود به الذاكرة إلى أيام ابن القيم ورفاقه آنذاك ابن الجوزي و ابن حزم وآخرين، تذكر صلاة الفجر في جماعة، وحلقات

الحفظ، وجلسات التذاكر، ورحلات الإنابة والبهجة، ولقاءات التأسي بالعباد الصالحين.

سقطت دمعات من عينيه و انْفَلَقَ لسانه بتمتمة الاستغفار بعد سنين جفوة، إنه يستغفر، لكن من ماذا يستغفر؟ من الذنوب السالفة، أم من غفلته، أم هي أوقات الحاجة والتضرع، أم استغفارٌ من الاستغفار الباهت:

استَغفِرُ اللهَ مِن اَستَغفِرُ اللهَ ... مِن لَفظَةٍ بَدَرَت خالَفتُ مَعناه

وَكَيفَ أَرجُو إِجَابَاتِ الدُّعَاءِ وَقَد ... سَدَدتُ بِالذَّنبِ عِندَ اللهِ مَجراها

فتح هاتفه، تَصَفَّح التطبيقات على عجل ولم يجد تطبيق القرآن، يا الله ما هذه الغفلة التي سرقتني من ديني؟

قرأ قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وقوله: ﴿بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [٤٣ الأنعام].

وقال في نفسه هل نحتاج لكارثة حتى نتضرع ونعود أم أن قلوبنا قست ولا ينفع معها بأساء ولا ضراء!

لـدى ابن القيم في وجدانه ذكريات لا تمحى، كانت معه متعة البدايات، وإرشادات الطريق، وقواداح الهمة. لكنه هجر ملهمه طويلاً بلا عذر، غرته العلوم الر افعة، وأدوات التحسن والتطوروالتميز، وأهمل أدوات النجاة. وما أحوجه اليوم للنجاة.

فتح حسابه في موقع التواصل الاجتماعي وغرد:

ربما ابتعدتم، وتبتعدون بين الحين والآخر، عن الله تعالى وشرعه. ولكن لا تسمعوا لمن يحرمكم من الاستغفار، وطلب رحمة الله.

#كورونا.

طريقة حياة

بينما هو يطالع ذكرياته على موقع الفيس بوك ظهر له هذا المنشور الذي كتبه في وقت فائت:

«هل الاستغفار عبادة تمارس فقط بقول كلمة (استغفر الله و أتوب إليه)!

الاستغفار ليس كلمات تتمتمها عقب كل خطيئة، ولكنه طريقة حياة».

ومازال يؤمن بحقيقة هذه الفكرة، وخاصة في زمن الكورونا.

في عزلته المفروضة، حاول أن ينفصل عن كل شيء له عهد بالماضي القريب، مازال وميض هاتفه كما هو منذ ورود المكالمة المجهولة، وما زال شوقه لصديقه القديم الذي شاركه رحلات السكينة يفيض على قلبه المغمور بالحنين للماضي الجميل.

قرأ كثيراً عن الاستغفار وسأل بعض أهل العلم عنه، كانت الإجابات واحدة، قولٌ يصاحبه شعور قلبيّ، لكنه يرى أن الاستغفار أكبر من مجرد ألفاظ يتمتمها الإنسان عقب انتهائه من ارتكاب جر ائمه المعهودة والمتكررة والمتغايرة.

من ضمن الأسئلة التي وضعها لشيخ مشهور في حيّه القديم عقب صلاة الفجر؟

شيخي ما هو الاستغفار؟

هو أن تقول: أستغفر الله.

أو: رب اغفرلي.

شيخي، هل هناك اقتران بين التوبة والاستغفار؟

قال له: موانع لحوق الوعيد متعددة، منها: التوبة، ومنها: الاستغفار، فالتوبة والاستغفار يمنعان عنك العقوبة، والتوبة تجديد للعهد القادم، والاستغفار أصالة إصلاح الماضي، وتعني طلب المغفرة، والمغفرة هي وقاية شر الذنوب مع سترها.

كالعادة غادروما زال في قلبه وَغْرَة السؤال الذي لم تطفيه إجابة.

هل الاستغفار قول وكفى؟

قال الله تعالى لنبيه: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ »، وهل كان الرسول كثير ذنبٍ ليتعهده الله بكثرة الاستغفار. تذكر مرة أنه قرأ في كتاب ابن قيم الجوزية، حديثه عن شيخه ابن تيمية رحمهما الله عندما قال له: إن المسألة لتغلق عليّ، فاستغفر الله ألف مرة أو أكثر أو أقل، فيفتحها الله عليّ وإن من أسباب راحة البال، استغفار ذي الجلال.

وتساءل هنا عن تجاوز منافع الاستغفار حدود المغفرة، وتمتم في نفسه: تَمهل ودعك من كل تلك المنافع فقد سرد الله عزوجل ثمار الاستغفار في العديد من الآيات، دعني أجد إجابة لتساؤلي القديم، كيف يكون الاستغفار؟

حَجْر روحي

بعد أن أيقن أنه في عزلة لا بد منها، بدأ بالتساؤل، متى يا ترى سنعود إلى حياتنا الطبيعية؟ وما لبث أن فطن: وهل كانت حياتي التي أتمنى العودة إليها طبيعية؟ ما الطبيعي بتلك الحياة؟ هل أعود إلى حياتي الطبيعية إلى الذنوب والآثام والفوضى والتشتت والانغماس في الملاهي والغفلة والتيه والعبث، هل أعود إلى مفارقة الصلاة والذكر، وملازمة الظلم والفسق. ما أعتبره طبيعياً لا يليق أن يوصف بالطبيعي.

جميل هذا الصراع الذي ينم عن توق صحي إلى تجاوز الحجر الروحي الذي كان يعانيه، هذه الأزمة حررته من مَحْبَسَة، وأعادته لإنسانيته المفقودة، أعادته ليعيش حالة الاستغفار والإنابة، أتى هذا الفيروس ليعزله عن دنيسة الماضي ويعيد لروحه حريتها وبعض بريقها.

إن الإنسان يحتاج للأزمات كما يحتاج للضرورات الحياتية الأخرى، فلولاها لظل في تيه العمر يجني رذائل الوقت دون هوادة، في هذه الأزمات يُعاد للإنسان جَلاءه فيرجع ويتضرع ويخبت وينيب ويستغفر.

دخل وتوضأ، ونوى قيام الليل.

استغفر الله، لي من هذا الوضوء والشعور والوقوف عمرٌ طويل، سنين مهدورة في العَتِهَ، خلالها كنت في سبات طويل عن مُهْجَ الحياة.

يا لهذا الأنس المفقود، هل يا ترى سوف أستعيد شعورتلك الليالي الهانئة؟

الله أكبر، وبدأ يتلو مما تبقى له من حفظه حتى وصل لقوله تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

ولم يتجاوزها حتى انهمرت دموعه، وسجد. وكان كل ما يقوله في سجوده استغفر الله، استغفر الله، استغفر الله.

هي مرات قليلة التي نتمنى فيها أن لو كان بإمكاننا إيقاف الوقت حتى لا تنتهي بهجتنا باللحظة الراهنة.

لقد حرمتني الحياة (الطبيعية كما يطلق عنها الناس) من أنس هذه اللحظات، لقد كنتُ في حجر روحي، ليت لهذه العزلة أن تطول.

يكتب الناس عن العزلة بتأفف، ويفصحون عن الرغبة لعودة الحياة الطبيعية كما يسمونها، وكأن العزلة خوف وملل وغُصَّة، ويجهلون أن العزلة مصنعاً للإنتاج النفسي ومعملاً للأفكار العظيمة ومدرسة لترتيب وتنظيم الروح والنفس والحياة والاستعداد الجيد للحظات القادمة.

لقد فاز بعزلته الصحية هذه بموارد السكون النفسي وجمال العودة للذات الأصيلة ومحفزات الإلهام.

لـو أن نيوتـن زامـن الكورونـا لمـا احتـاج إلى أن يوصـي أصحابـه «لا تذكـروا اسـمي أمـام أحـد، لا أريـد أن اشـتهر بيـن النـاس، فتكـثر معـارفي». وذلـك لكيـلا تفسـد عليـه كثـرة المعـارف واللقـاءات عزلتـه المعرفيـة التـي تـؤمن لـه فتوحاتـه العلميـة والفكريـة. اليـوم سـيدي نيوتـن، فُرضـت علينـا العزلـة في غفلـة مـن الزمـن.

لقـد ردت إليّـه روحـه في عزلتـه، اسـتغفر اللـه ورمـمّ فجـوات قلبـه، وصنـع كيانـه مـن جديـد، إن الخيـارات اليـوم مفتوحـة أمـام الجميـع ليعيشـوا (عـزل الاسـتكانة) ونعيـم الاسـتغفار.

دَعَة من الوقت

للموت أشكال عديدة، أشدها وجعاً أن تعود للحياة مرةً أخرى، كي تموت من جديد تحت وطأة الغفلة أو الحنين للفتور، و أنت ترى تهافت الشوق للذنب تنهش هناءة الروح في لحظات الصفاء.

من المؤسف أن يصبح قلبك غنيمة لكل ذنب اقترفته في لحظة فتور.

كان يدري أن العودة للذنب تعني الموت من جديد، هو بحاجة لقوة تدفع عنه قوة الشوق إلى عهد المعاصي الز ائل، يستشعر نعمة الفايروس الذي أتى من الله ليجدد عهد ذاته مع الحب الزُلاَل، لقد كان بحاجة لهذه العزلة من سنين، ليقف ويتوقف ويعيد ترتيب كل شيء. ولكن في غفلة من العزلة وجد نفسه تشاغله وتراوده لمعاودة ما فارقه وتاب عنه.

هرع إلى الوضوء وصلى ركعتين، خيالات عديدة تجعل لعابه يسيل، وقلبه ينتفض، إشعارات الهاتف ووميضه عوامل مساعدة للذنب تعيد لذاكرته الماضي الماحق، تتوارد أفكار هنا وهناك، يصارع ذاته والعزلة تصارعه، مازال مذاق قيام البارحة يجري في عروق وجدانه، ومازالت سجادته مبتلة من دموعه المنهمرة، أيا غفار اغفر لي، أيا تواب تب علي، لا تعيدني لذنبي، يا غفار اغفر لي.

كان استغفاره شفقة يقدمها قرباناً لعل مدد السماء يهطل عليه، مازالت توبته غضة طرية، والذنب مستفحل مستوحش، عهده مع الإنابة قصير، رصيد إيمانه منخفض، عرقه يتصبب ويتقاطر على جبينه كالمطر، يا رب. يلوح بهرج الذنب في خيالاته ويصنع هالات من المتعة واللذة، وروحه تئن من وطأة الجسد، قلبه عالق بين نفسه المنفرطة، وروحة الغضة. وميض الهاتف ورنينه له وقع مجلجل لا تطيقه نفسه الهشة، صريخ، ضجيج، ضوضاء، عجيج، لغط، هرج وهتاف، صراع مُزَمجِر يعصف بوجدانه.

سقط أرضاً وسجد، وبصوت روحه المنهكة، رددّ أستغفر الله.

أستغفر الله من ذنبٍ يتوثب لي، ليس لي على صده جلدٌ

أستغفر الله من علمي ومن عملي

أستغفر الله من طمعي ومن أملي

أستغفر الله مما قد جنيت

ومن ظلمي وجوْريَ في أيامي الأول

أستغفر الله مما قد خفا وبدا

وما تقربه نفسي من العمل

أستغفر الله من حسدي ومن نقصي

ومن غروري ومن حولي ومن حيلي

أستغفر الله من حسي ومن نفسي

أستغفر الله من سري ومن علني

أستغفر الله من شرك على خفا

ومن فسوقي وإجرامي ومن زللي

أستغفر الله من وهمي ووسوستي

ومن دسيسة نفس قد تخيل لي

أستغفر الله .... استغفر الله

غَفْوَة

أَفاقَ وهو يردد قول الله تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)، على وقع صوت المؤذن الذي ينادي للصلاة:

اللهُ أكبر اللهُ أكبر. اللهُ أكبر اللهُ أكبر

أشهد أن لا إلهَ إلا الله. أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمدًا رسولُ الله. أشهد أن محمدًا رسول الله

ألا صلوا في بيوتكم

ألا صلوا في رحالكم

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله

ردد بصوت يعتريه الحسرة والندم:

«أوقفت الدول والحكومات اليوم صلاة الجمعة والجماعة، و أنا أوقفتها منذُ سنين، يبدو هذا الفجر كئيباً، فلن يعيد لي ذكريات صلاة الفجر في المسجد التي كان لها وقع خاص في نفسي. اعتدت أن أصلي الفجر في جماعة، ثم أقرأ وردي اليومي من القرآن، ومن ثم أذكر الله واستغفره حتى طلوع الصبح.

تعلمت هذه العادة الحسنة من ابن قيم الجوزية، حينما قرأت في كتابه عن روايته لشيخه ابن تيمية الذي كان يصلي الفجر، ثم يجلس يذكر الله ويستغفره إلى قريب من انتصاف النهار، ثم يلتفت إليه ويقول له (هذه غدوتي، لو لم أتغدّ لسقطت قوتي).

كانت لحظات جميلة لا يمكن تعويضها الآن، و إني لأسى على فوات الفرص.»

صحيح أن أول تجربة بشرية حكاها القرآن كانت عن تجربة الخطأ والتجاوب مع الإغراء و اقتراف الذنوب. وأن من خلال أول درس أراد الله عزوجل أن يعلمنا التوبة كما حدث مع أبينا آدم (وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ) – (فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

لكن ثمة ذنوب وأخطاء تترك بالقلب ندوب وندم ولا يهونها شيء.

لقد هجر أواب المساجد مبكراً، واليوم حين قرر العودة لها، عجز عن ذلك.

لقد هجر المساجد بلا توديع كما يفعل حبيب خائن ذات صباح!

شعور يشبه المغص ألم بقلبه، وبدأ شلال الندم يتدفق بقوة، يناديه العقل أن لغدٍ عطاياه، ولكن الشوق أقوى والحنين أعتى. كان فيما مضى حريصاً على النوم مبكراً استعداداً للفجر، إلا أن سنين الغفوة سرقته من نفسه، واستولى الذنب عليه و اقتطع جزءاً كبيراً من مسرات روحه. كان يستيقظ دون تنبيه وكأنه غفا غفوةً خفيفة، كل يوم يستيقظ على صوت الله أكبر.

اليوم ما لبث أن يفيق من غفوته، ولكن سيصلي في رحله، ليس كما كان.

بدأ صبره بالنفاد، وتركزت جوانحه على الغد القادم، تذكر ذلك القول الذي قرأه مرة في أحد كتبه المفضلة:

كنا نجد الشيء ولا نشتهيه، ولما فقدناه اشتهيناه.

متى يعود الفجر!

ميلاد جديد

نظر أواب إلى المرآة، وقارن بين صورة أخذت له وهو في العشرين، وصورة أخذت له وهو على مشارف الانتهاء من الثلاثين، يرى بين الصورتين فروقاً موجعة، يشعر هو بالضعف كما يراه بعينيه، دليل واضح كيف أن الذنوب سرقت من رصيد عمره سنوات وأورثته الوهن.

جدد روحه وأطلقها ولكنه عجز عن تجديد قوى جسده المنهك، فقد الكثير من الألق الذي كان يراه من ينظر إليه، عاش سنين طويلة حاملاً لثقل الذنوب، لقد خاض حروباً ضروس وعصفت به أعاصير الذنوب وتلاشى الكثير من الجمال في نفسه.

إلى ما قبل الكورونا وعزلة الاستغفار، عانى أواب من السأم الوجودي، السأم من أعباء الذنوب وتكاليفها، والسأم من نهمها المكرر.

لقد عاش عقد مفرغ من المعنى، كان طموحه خالصاً للحصول على المال والمنصب والجاه، وجنح للمنافسة وحب الغلبة والتفوق على الآخرين، كان مفعماً بالشهوات، يبحث عن الدهشة والمفاجأة ويفتش عن الإثارة والمتعة والشعور بالبهجة والزهو والغبطة، كان يفكر في الاستحواذ.

اليوم وجد في عزلته إبداعاً، فمن بعد التيه والغرور والغفلة آبَ.

لم يتوقع قط أن يجرب مشاعر كهذه، لقد تنامت في وجدانه بشكل مفرط لتكون عملاقاً لا يمكن مقاومته، حينما أصبح بمحاذاة الأربعين، عاد بذاكرته إلى سنين اليُنوع.

المقارنة أوجعته، تمالك نفسه ووضع يده على قلبه، وداري إحساساً داخلياً بفوات الأوان، وقبل أن يستسلم لليأس والبأس، التفت بسرعة نحو مصحفه، بآمال الحب العريضة، وشغف المحب العطوف، تاهت النظرات في ذلك اللقاء المقيد، وشرق بفرح اللقاء، وتضاءلت صحراء الفراق، لترتوي الأرض من دموع الأوبة.

في تلك اللحظة التي حملته على تلك المقارنة الموجعة، اكتشف أن العالم قد تغير بالكامل، تغيير طال كل شيء، العالم والناس وذاته، لقد عاش في عزلته صامتاً إلا من الاستغفار، كان صمته مسموع لدى رب السماء، كان صمته أبلغ من كل الكلام، وتوصل في النهاية إلى أن الأحداث العظيمة في الحياة لا تتجلى في ساعات الفوضى والضجيج، و إنما في ساعات الصمت.

عاد إلى حياته الطبيعية وهو يكاد يشعر بالحاجة إلى الثرثرة والحديث، فهذا اليوم كان مختلفاً، كان طويلاً جداً، وقصيراً جداً، لما أسدل الليل ستاره؛ بدأ تأثير ذلك الاستغفار يربك عقله وقلبه، فهل زاد إيمانه أم ثقب قلبه؟

ميلاد جديد

ثم أردف يردد بصوت مُنشرح:

مهما عثرتَ فلا تقِف

ما دامَ في القلب الشّغف

حتى وإن ذقتَ المرارةَ

في مسيرك للهدف

إنَّ الحياةَ تجاربٌ

لا تستطِل زمنَ الأسف

واليوم يومُك

فاغتنم للنفسِ خيرًا واغترف

واذكر جهودكَ حينما

جاوزتَ أوّل منعطف

أرأيتَ أنك تستطيع؟

أم أنَّ مَن قطعَ المصاعبَ

كانَ شخصًا مختلف!

أنتَ الذي إن شئتَ

حوَّلتَ الخريفَ إلى ربيع

فاعبر وواصل بالمسيرِ

إلى طموحكَ.. لا تخف

حتى وإن شدَّ التعب

إنَّ العلا ما نالهُ أهلُ الرفاهة والترف

يومًا ستبلغُ ما أردتَ

وسوفَ تفرحِ بالشرف

وتصيح حمدًا للذي

بالجودِ يسَّرَ ما سلف.

الخاتمة

تعلم الاستغفار والاعتذار إلى الله، فإنك إنسان وللإنسان فلتات وهفوات، وعند الزلات احذر أن تَشَامَخَ، واحذر أيضاً أن تيأس وتغلق باب التضرعِ، فالتمادي بالذنب مثله كمثل اليأس من رحمة الله، هنا كل ما عليك فعله أن تستغفر، وتتوب، وتأوب، وتأَوَي إلى الله مستجدياً خانعاً ترجو غفرانه.